محور أدب الطفل العربى
فى ضوء الظروف المتغيرة
نظريات إبداع الطفل الأدبى

تأليف:
أ.د.أحمد زلط
جامعة قناة السويس

محور أدب الطفل العربى فى
ضـوء الظروف المتـغـيـرة

فى نظرية الإبداع (مقاربة وصفية):

منذ فجر الحضارات الانسانية وإلى العصر الحاضر، ومقولات كبار النقاد والفلاسفة وعلماء علم النفس تتناول بالرأى والتنظير عملية الفعل الإبداعى كظاهرة بشرية، وأقدم تلك النظريات فى مجال الإبداع هى: نظرية الإلهام = الحلم = العبقرية: فالإلهام فى نظر الشاعر اليونانى القديم مصدره (ربات الشعر)، أما الإلهام فى نظر رصيفه الشاعر العربى القديم فمصدره (شياطين الشعر) واستمر سريان هذا المفهوم المسبب لعملية الفعل الإبداعى من العصر الجاهلى إلى عصر النهضة وماتلاه، وتوهم الشعراء أنهم يقرضون الشعر بفعل خارج عن إرادتهم، فأفلاطون وصف الشعر يومئذ بأنه كائن مقدس، ويفقد صوابه لحظة إبداع القول الشعرى، ووصف الشعراء كذلك بالجنون، فعند الإلهام تملكهم الشياطين، وفى تلك الفترات الزمنية كانت العرب تقول بشياطين الشعر الملهمة، فى وادى الجن أو وادى عبقر ثم أخذت تلك الآراء تتوارى بظهور الإسلام، فعرفت التفرقة بين الوحى الإلهى، والإلهام المتخيل، ومن ثم جاء النضج الحضارى والتأمل العقلى، وانتقلت جذور نظرية (الإلهام) القديمة إلى ميدان آخر عرف فيه العقل البشرى الحديث معنى التجربة والاستعداد والمخاض ثم تحول المفهوم تجاه الإبداع من الإلهام الشيطانى أو من ربات الشعر، إلى الهام نابع من الحياة الروحية الإنسانية أو من صميم)الأنا العميقة) للفرد المبدع على حد تعبير (بيرجسون)، وهنا تحول مفهوم الإلهام من مفهوم غيبى إلى ما يشير إلى قوى غير مدركة تنبع من صميم الحياة النفسية الإنسانية تحت المبدع للفعل الإبداعى من خلال انبعاثات لا شعورية مصدرها الحلم أو الخدر الذى يشبه النوم عند الخطوط الفاصلة بين الحلم والخدر أو (السبات) واللاشعور، لذا قد حصد الكثير من علماء النفس والنقاد العديد من المؤشرات التى تدعم نظريتهم فى (الإلهام = الحلم) منهم على سبيل المثال: (دى بيران) و (جوتييه) و (جرانفيل) و(بيتون) و

(كوليردج) (وإدجار آلان بو) وغيرهم، وقد خلصوا إلى إمكانية استعادة حالات الهذيان الاستهوائية أى الجمع بين حالتى اليقظة والحلم معاً بنوع من المهارة الفائقة[١]. وقد عمق د. يحيى الرخاوى هذا المفهوم فقال:)إن الحلم يمثل إبداعا (بيولوجيا) والنتاج الإبداعى هو الصورة المحورية الرمزية لهذه العملية الحتمية على مستوى فائق من الوعى والإرادة.. فالحلم وجود مناوب، والإنسان ليس هو مايعى، وإنما هو ما يتكامل بتوليفة من مستويات بعضها فى مركز وعى اليقظة على هوامش اليقظة والبعض منها فى وعى الحلم والبعض الآخر فى وعى النوم بلا حلم[٢].

** أما نظرية التحليل النفسى والتى تزعمها (فرويد) فى نظرية مثيرة وشائكة فى تفسير عملية الإبداع يرى (فرويد) أن الصراع هو أساس الإبداع الفنى. والفن هو تحرير للطاقة الغريزية المكبوتة لاشعورياً عن طريق الرمز. ويطرح مبدأ الإعلاء Sublimationكأبرز ميكانيزم تلجأ إليه (الأنا) من أجل تخفيف حدة الصراع، أو الوصول إلى الاتزان والاستقرار (مبدأ الثبات). إذا فالإبداع عند أصحاب ذلكم الاتجاه يقضى أن يضحى الفرد بمبدأ اللذة = تقبل الحرمان الحسى لحساب الإبداع الذهنى والحضارى[٣].

وفى ضوء ذلك لا يميل الباحث إلى قبول اتجاه التحليل النفسى على إطلاقه وإنما تفسير السلوك للإفادة منه _ فى الإبداع الأدبى خاصة _ ما يكمن فى مقولته بأن الحلم يقود إلى معرفة طبيعة قوى الصراع إذ أن الرموز فى الحلم لها أهميتها البالغة فى الكشف عن المضامين اللاشعورية.

وليس من شك أن الرأى الثاقب لـ (يونج) يتفق والمنتج الإبداعى فى الحياة الإنسانية عبر تاريخها الطويل، فقال بأن الفن مصدره النفس العليا واستحالة انبثاق الفن من نشاط متدن كالدوافع الغريزية، لأن (فرويد) تجاهل فى نظريته)اللاشعور الجمعى) بما يحمله من موروثات جيلا بعد جيل.

* ولعل نظرية التحليل النفسى الفرويدية الأم، قد فتحت العديد من بحث مسببات

(١) سيكولوجية الإلهام، د. نورى جعفر، أفاق عربية، بغداد يونية ١٩٨٧.

(٢) الأدب والفنون، د. يحيى الرخاوى، فصول، مج ٥ ع٢، يناير ١٩٨٥م.

(٣) الأصالة فى مجال العلم والفن، د. نورى جعفر، ط بغداد ١٩٨١م.

الإبداعن فقال (أدلر) (بنظرية) القصور العضوى والتى عمقها (بافلوف) دون فى اتجاهه السلوكى من بعده فأسماها من دلالتها عند (أدلر) بالتعويضية بوصفها تعويضا للقصور ونتاجا للميل نحو التفوق الإبداعى لدى أصحاب العاهات أو القصور الجسمانى من أمثال: بيتهوفن وباشر بن برد والمعرى وابن الرومى وطه حسين ومحمد العلاتى وعبد الله البردونى وغيرهم.

* أما النظرية الثالثة فى تفسير المجالات الإبداعية فى الأدب والفن فهى: النظرية الاجتماعية = الأيديولوجية: وأصحابها يرون أنها تعبير عن المجتمع فيما يصدر عن الفنانين والأدباء وأن عملية الإبداع الفنى أو الأدبى تحيْ إفرازاً ضرورياً لقوانين اجتماعية وتاريخية وبيئية، ومن رواد تلك النظرية: (تين) و (بونالد) وغيرهما من أنصار الالتزام التاريخى والمذهبى السياسى الاجتماعى البيئى فى المجمع.

ومع أن اجتماعية الأدب أو الفن للمجتمع والعكس صحيح عبارة يمكن قبولها عند أصحاب تلك النظرية إلا أن طمس شخصية المبدع الفنان وطبيعة دوره الشخصى فى عملية الإبداع قلل من استمرار ذيوع تلك النظرية لذاتها أو فى سياق نظريات أخرى.

وتفجر النظرية الرابعة: (النظرية السيكولوجية = الفسيولوجية) عدة قضايا فى مجال الإبداع، فتصف العمل الإبداعى بأنه جزء من السلوك يخضع لعمليات انعكاسية شرطية محددة، ويمكن إكساب الإنسان العادى مجموعة من العادات العقلية والوجدانية بحيث يصبح الفرد مبدعا، ولقى (بافلوف) ومعه السلوكيون ومعظم أصحاب المنهج الفسلجى انتقادات مستمرة لمقولاتهم، ذلك أن الواقع الراهن فى سائر المعمورة لا يشير إلى إمكانية تحويل جميع البشر إلى مبدعين أو فنانين، هذا من ناحية أما من الناحية الثانية فتكمن فى انتظار المزيد من النتائج التى لم تستكمل بعد فى الدراسات الدائرة لمناطق الأقسام العليا من الدماغ لدى الشخص المبدع وغير المبدع فى آن[1].

(١) لمزيد من التفاصيل:

- الطفل مبدعا، أحد زلط، دار هبة النيل، القاهرة ٢٠٠٣.
- ذاكرة السحر، د.أحمد زلط، دار هبة النيل، القاهرة ٢٠٠٣.

وفى واقع الأمر، أن النظرية الاجتماعية الايديولوجية مع النظرية السيكولوجية، تشكلان حجر الأساس فى إبداع شتى فنون أدب الطفل، شعره ونثره، لأن أدب الطفل فى جوهره، أدب موجه من الكبار إلى شرائح الصغار، فى ضوء احتياجات المجتمع، ومعطيات الواقع المعيش، والموقف الفكرى للمبدع، ومنجزات العلوم النفسية التى تمد علماء الأدب، بل المبدعين بخصائص مراحل الطفولة جميعاً، وإشباع حاجاتها، واحتياجاتها.

إن أى نظرية إبداعية لا تقوم كاملة إلا إذا اشتملت على المرسل والمستقبل، والغاية أو الغايات من استقراء محتواها ومضمونها، فالطفل هو المتلقى (متذوق أو متأدب أو متعلم أو موهوب) والمرسل هو المبدع (الشاعر والقاص والمسرحى وكاتب الأغانى والأناشيد). وإذا كانت الوظيفية المقصودة(*) من وراء إبداع أدب الطفل تتمحور عند الجوانب التربوية (التعليمية واللغوية والأخلاقية) والفنية والجمالية، فأن بذور "... العناصر الجمالية أو)الكيفيات) الجمالية هى أول غرس فى عالم الطفل الجمالى، وتبدو فى نظرة الطفل للألوان، والأضواء، والأصوات، والحركات، والإيقاعات ويميز الطفل بين لون وآخر أو صوت وآخر وغيرها، بمثابة إدراك الوعى الجمالى، من أسسه الأولى مرحلة أثر أخرى، أو خبرة موقف بعد آخر.

والإدراك الجمالى يتناغم مع موهبة الطفل وينمو من صنع بيئته (ولكنه تكوينى من خلال وراثته فتكوين الطفل phenotype يتبع خصائص وراثية genotype تخزنها مورثاته gense وتنقلها مكن جيل لآخر مستمرة إلى ما لا نهاية أحياناً، وقد يتبادر إلى الأذهان أن الثوابت الوراثية لا شان لها بثقافة الطفل، ولكنها فى الحقيقة تلعب دوراً هاما فى تثقيفه(١).

والأدب أحدأهم العوامل لرصد الجمال فى الأشياء والكون من حوله، فنبدأ بإيقاظ هذا الحس الجمالى من خلال الآيات القرآنية _ عندما يبدأ يحفظ آيات وسور من القرآن فى بداية المدرسة _ التى تكشف عن أن الجمال فى تنظيم الكون وتصميمه مقصود وليس شيئا بلا معنى، مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾

(*) ينظر: الوظيفة: معجم مصطلحات الأدب د. مجدى وهبة، معجم الطفولة، د. أحمد زلط وغيرهما.
(١) ثقافة الطفل، د. ألفت حقى، عالم الفكر، مج ١٠ ع٣، الكويت.

الآية ٥ سورة الملك. كذلك الآيات التى تكشف بعض خصائص الجمال مثل التوازن والتناسق والترابط بين أشياء الكون مثل: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ الآية ٣ سورة الملك. كذلك ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾ الآية ٢٧/ ٢٨ سورة فاطر. والبيئة بمعناها الواسع، تحيط بعالم الطفل، فى قبحها وجمالها، فى إيقاعها الرتيب أو اللاهث، وغيرها، ومع ذلك فإن الطفل يتذوق، بل هو فنان بطبعه، مهما كان مستوى البيئة التى يعيش فيها فى ضوء ما أسلفناه، فإن أداة التعبير والتفكير فى أدبنا كانت وستظل هى "اللغة" بمستوياتها المناسبة للراشدين أو الناشئين، ويمثل (القرآن الكريم) المثل الأعلى، لأنه المتفرد فى إعجازه البلاغى، والبيانى، والإيقاعى، لذلك فإن خبراء المناهج يعظمون من دوره فى صياغة لغة الطفل، ومن ثم التوازن الإيقاعى من فواصله الموسقة، ولغته المعجزة. ثم يأتى الأدب لتحقق نماذجه _ مع الطفل خطوة، خطوة، تآزر المعرفى مع الوجدانى. وقد تخيرنا فى هذا البحث فن الشعر (شعر الأطفال) لتحليل ما ذكرناه وقوافى الشعر واتساق ألفاظه أى تنظيمه الداخلى الخاص، كلها عناصر أدبية تسير مع حديث الطفل Child Talking فى بعض جوانبه وبخاصة مردودها فى التركيز والاتساق والتكرار، وكلنا يعرف أن الأطفال يستمتعون بالأصوات المنغومة وتدفق الأصوات الموزونة من قبيل أمهودات النوم والأناشيد والأغانى والمقطعات الشعرية القصيرة (الترنيمات) التى يفهمونها فهما كليا أى أن ذلك الميل ينسجم مع بعض البنيات العقلية الداخلية. للطفل والتى تنظم من تلقاء نفسها بطريقة خاصة عند الإتصال اللغوى إن أطفال عالمنا العربى والإسلامى يلقنون آيات القرآن الكريم، ويستظهرونها بالصوت الذى يشى بالمعنى الدلالى الكلى، وهذا الفهم الكلى للكلمات القرآنية يثرى عقل الطفل ووجدانه، وبنمو لغة الطفل ونضجه العقلى "تتحول تصوراته الكلية إلى دلالات ذات معنى هنا تنهض اللغة بدور استثارة التفكير وكما أن كل كلمة ننطق بها تعبر عن اتجاهاتنا فإن المعنى meaning المتحدث به لغة يكون واحدا بالنسبة لكل المتحدثين لكل المدلول Sense يدل على ما يضيفه كل متحدث إلى

المعنى العام وكيف يغيره أو يثريه. وإذا كانت الكلمات تمثل صورا للأشياء فإن ثمة علاقة بين الكلمة وصورتها وبين الكلمة ومدلولاتها فى الذهن" (*).

شعر الطفولة مقاربة تحليلية (أحمد زرزور أنموذجاً):

توطئة:

* شهد الربع الأخير من القرن العشرين، مع فاتحة الألفية الثالثة، رواجاً فى الإبداع للطفل، وظهرت كوكبة من كبار الشعراء والأدباء على امتداد الوطن العربى، وتمثل ظهورها فى إسهام متنوع ورائع لفنون الإبداع الموجه للأطفال..

لقد أثمر حصاد إبداع الطفولة عن بروز نخبة مبدعة فى أدبنا العربى المعاصر فى مصر، وهى التى تسلمت رايات الإبداع فى أعقاب الجيل الذى تلى رائد أدب الطفولة كامل كيلانى، فلم يعد إبداع الطفولة وقفاً على إبداعات عبد التواب يوسف، وأحمد نجيب ويعقوب الشارونى وسليمان العيسى وزكريا تامر وبيان الصفدى وفاروق سلوم ومحمد محمود رضوان وغيرهم من أبناء الجيل الذى أمسك الراية من كامل كيلانى أما الأجيال المعاصرة، فأفادت من مجهودات التاريخ والتأصيل وإسهامات الرواد المحدثين، لذلك ألفينا الأشعار والقصص والمسرحيات والأناشيد يكتبها المعاصرون الجدد أمثال: عبد المنعم عواد يوسف، أحمد سويلم، أحمد زرزور، أنس داود، يس الفيل، السيد القماحى، لينا بدر، لينا الكيلانى، محمود قاسم، فاطمة المعدول، سمير عبد الباقى، خالد اليوسف، محجوب موسى، محمد فريد معوض، عمر بهاء الأميرى، محمد أمين، أمين عز الدين وغيرهم.

وفى الواقع أن اضطراد الإبداع للطفل العربى من حيث "الكم" و"الكيف" فى أدبنا المعاصر، يدحض التوهم لدى بعض الأصوات التى تقلل منه كأدب أو تحقر مما ينخطرون فى فنونه، فكبار الأدباء، ابدعوا، مثل أواسطهم، والنقدو البحث يواكبان حركة الإبداع الملحوظ فى أدب الطفل، طالما أدرك الجميع أهمية الفروق التى لا بدنها؛ فى مستوى عقل الطفل وإدراكه مما يقل ـ كأمر منطقى ـ عن مستوى أدب الكبار، وفى ذلك تنطبق مقولة الأمام الغزالى (-١١١١م): "كل لكل عبد (فرد) بمعيار عقله، وزن له بمقدار حجمه".

(*) الطفل مبدعا، مرجع سابق، المقدمة.

* بادئ ذى بدء، أود الإشارة إلى أن هذا البحث تتمة لسلسلة تناول أدب النخبة الأدبية المعاصرة فقد سبق أن تناولنا من بين جهود المعاصرين، مجهودات(*) الشاعر أحمد سويلم (١٩٤٢-؟) لذلك سيطوف البحث مع نتاج الشاعر أحمد زرزور كأحد رموز الإبداعية المعاصرة للطفل.

أحمد زرزور وشعر الطفولة المعاصر:

يحتل الشاعر أحمد زرزور (١٩٤٩م-؟) مكانة متمايزة، بل فى الصدارة مع أكابر شعراء الطفولة فى مصر، طوال العقدين الأخيرين وقد لقيت أشعاره الموجهة للأطفال نجاحاً ملحوظاً، بحيث تفوق إبداعه الشعرى للطفل عن إبداعه الشعرى للكبار، وقد توج مجموع نتاجه بالحصول على جائزة الدولة التشجيعية لأدب الأطفال فى مطلع تسعينات القرن الماضى، مما حفز الشاعر للتواصل مع عالم الطفولة، فأصدر أكثر من ديوان شعرى(**) لمرحلتى الطفولة الوسطى والمتأخرة، وابتكر الشاعر عملية اندماج الرسم مع الشعر فى مخاطبة الطفل، إذ خُصص غلاف مجلة "قطر الندى" فى كتابته "قصيدة" شعرية تعكس "لوحة تشكيلية" يرسمها الطفل كل عدد، مما يشكل ديواناً يتآخى فيه الفن والأدب، والآمال معقودة أن يستمر ذلك العمل الفنى غير المسبوق.

وفق الشاعر من خلال ديوان «كى يسلم الجميع...»(١) أن يؤدى وظيفة تعليمية

(*) ينظر كتابنا: جماليات النص، دراسات نقدية فى الأدب المعاصر، ذاكرة السحر، الخطاب الأدبى والطفولة، وغيرها، فالشاعر أسهم فى كتابة الأغانى لطفل ما قبل المدرسة، وحكايات من ألف ليلة وليلة، والمسرح الشعرى للطفل (١٥ مسرحية)، والأمثال (حكمة الأجداد)، والقصة الشعرية، أيضا ودواوينه للطفل أتمنى لو، تعالوا نغنى، أنا وأصدقائى، وغيرها من كتب السير والتراجم المبسطة للطفل. (الباحث).

(**)أحمد زرزور، شاعر مصرى، يعمل مديرا عاما بالهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر، من مواليد قرية سرورهيت محافظة المنوفية عام ١٩٤٩م، اختير عضوا بالمجلس المصرى لكتب الأطفال، نشرت أشعاره بالدوريات المصرية والعربية منذ أكثر من ثلث قرن وصدر له أكثر من ديوان شعرى للكبار، أما دواوينه للأطفال فأهمها: «ويضحك القمر»، «سلام عليكم»، «أغنية الأسير»، «وردة القمر»، «قوس قزح»، بلياتشو»، ما قالته الغيمة الأخيرة»، «كى يسلم الجميع.. لم أعد أحسدهم» وغيرها من عشرات اللوحات فى قصائدن ومتفرقات أخرى قيد النشر.

(١) ديوان كى يسلم الجميع شعر أحمد زرزور، ص ص ١٥، ١٦، ط المركز القومى لثقافة الطفل ومنظمة اليونيسيف، القاهرة، ١٩٩٣.

عن طريق الفن، ذلك أنه لفت انتباه الطفل إلى أهمية الوعى الصحى البيئى لدى طفل القرية، من خلال نص شعرى مقنع بلا خطابية فجة يقول تحت عنوان:

كى يسلم الجميع:
منشقة واحدةُ
لأوجه الجميع
منشفة واحدةُ
تضر بالجميع ...

ومن خلال تكرار المقطع الشعرى داخل سياق النص يقطن الطفل إلى أن المنشفة الواحدة لكافة أفراد الأسرة تنقل العدوى المرضية؛ أيضاً يعانى طفل القرية من الاستحمام فى الترع أو المصارف، فيصاب بالأمراض المتوطنة، مما حذر منه الشاعر على لسان الأب فى سياق نص عنوانه:« ... ولم أعد أحسدهم»: يقول فيه:

يحق أن ترثى لهم
لو عرفوا يا ولدى
أى أذى أصابهم
فالدود قد عاجلهم
بدائه،
واحتلهم!
ياويلهم
ياويلهم".

وفى شعر أحمد زرزور للطفل إلحاح فنى على تقديم الوظيفة التربوية أو التعليمية فى سائر منظوماته للطفل، ومنه «أغنية الحداد» التى أوردها ديوانه «أغنية الأسير» ومن خلال الأغنية يؤكد على قيمة العمل المهنى ومدى حاجة المجتمع إليه فيذكر فى المطلع:

«تراقصى تراقصى

يا نار فى الاتون

تراقصى وعانقى

ابتسامة العيون

فحلمى الكبير

أن يصبح الحديد

طائرة تطير

أو مقعداً جديد»(١)

فالشاعر تتسلل أغنية فى لغة دالة، وخيال بسيط، إلى عقل الطفل وإدراكه، ومنه أنشودة الوفاء للمعلم، ومن خلال لغة رشيقة وصورة قريبة يغرس الشاعر تلكم القيمة فيذكر:

«حيوا معلم

واحنوا له الجباه

فكم أنار عالمى

وسرت فى ضياه»(٢)

لقد ألفينا خبرة الشاعر التى أودعها لاستهلال السابق، بحيث تحول الخطاب من جمهور الطفولة عامة إلى الذات، ذات كل طفل مما يتعمق فى دواخلهم قيمة تجلة المعلم والوفاء لدوره، ولشخصه كذلك.

نموذج آخر للشاعر يؤكد من خلاله على ضرورة «النوم المبكر والاستيقاظ المبكر» بديلاً عن شواغل سهر الطفل مع مستجدات العصر، أو خارج المنزل، يقول الشاعر من قصيدة «القمر والأحلام».

---

(١) ديوان أغنية الأسير، شعر أحمد زرزور، ص ص ١٣ ن ط١ دار جهاد للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥.

«القمر البسام

يرنو إلى شباكنا،

ويرسل السلام

أظنه يقول بابتسام:

تهيأوا للنوم يا صغار

هذا

أوان

أجمل الأحلام ... !»(١)

أما تهذيب (الحكايات الشعبية الموروثة) عى لسان الأجداد، فاستثمرها الشاعر فى قصيدة أخرى عنوانها «حكاية المساء» ومن خلالها يطرح على الطفل وبأسلوب فنى (النموذج القدوة) حول رموز ليتها تكون؛ فيذكر:

«لا تحكى لى يا جدتى

عن ساحر شرير

أو شبح يطير

أو غولة

مخيفة،

محلولة الشعور

بل أحكى لى يا جدتى

عن بطل شجاع

قد أنجبته أرضنا على مدى الدهور

أو عالم،

مفكر

(١) ديوان وردة القمر ، أحمد زرزور ، ص ١٠ ، ط ١ دار الملتقى ، قبرص ، ١٩٩٥ م.

جليل

أضاء ليل شعبه

وقال للمحال: «لا يعرف الأحرار فى الحياة مستحيل ... !»[1]

ويندمج الشاعر مع عالم الطفل؛ بل حياته الأسرية، إذ يجيب الطفل فى غرفة سكنه، فى مقطوعة وصفية، سهلة اللغة، بسيطة الخيال، يقول تحت عنوان: «ماذا فى حجرتى؟»:

«فى حجرتى صور

للورد والقمر

والشمس، والغيوم

والطير والشجر ... !

فى حجرتى كتب

جميلة الرسوم

لقطة تثب

أو زورق يعوم

فى حجرتى ستارة

تزين الشباك

ولعب كثيرة

تناثرت هناك!»[2]

إن أطفالنا، سيتمون لغرفتهم ويألفونها بمفرداتها، ومنه يواصل الشاعر الحث على ذلك فى قوله:

«بورك فى كتاب

---

(١) ديوان وردة القمر ، أحمد زرزور ، ص ١٠ ، ط ١ دار الملتقى ، قبرص ، ١٩٩٥ م.

(٢) ديوان قوس فرح ، أحمد زرزور ، ص٨ ، ط دار جهاد للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٨ م.

يحمله الأصحاب

يغمرنا بالنور

من علم مسطور

يبتكر الأفكار

أو ينشد أشعار»[1]

فالكتاب أحد مفردات الغرفة، يتحول إلى صديق للطفل، ونور المعرفة مع أحاسيس الوجدان، يشكلان منظومة فى حياة الطفل، وهو ما وفق إليه الشاعر دون تعقيد لغوى، أو خيال مركب، أو أفكار بعيدة عن عالم الطفولة. لم ينس الشاعر فى أغلب دواوينه، تعميق طبيعة العلاقة بين الطفل والعالم المحيط به، بهدف سلوكى تارة، أو اجتماعى تارة أخرى، ومنه ما أورده مقطوعته «سلام الله»:(*)

سلام الله يا أبتى

سلام الله يا أمى

سلام الله أهديه

إلى أهلى، إلى قومى،

سلام الله للشرطى

يحرس أمن شارعنا

وللعمال يشتغلون ليلا

فى مصانعنا

سلام الله للشرفاء

يحترمون حق الجار

فقد أوصى النبى به

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣ .

(*) حدث خطأ طباعى من الناشر ، إذ ص ١٦ هى المتممة لـ ص ١٤ ، وص ١٥ مقطوعة مستقلة .

ألا، فليعمل الأخيار»[1]

أما الوطن، فوطن محبة وسلام، ويمزج الشاعر دائماً بين سلام مأمول عادل، وإعداد العدة لكفاح يصد العدوان، يقول الشاعر مخاطباً الطفل من مقطوعته وطن محبة!

«أيدينا ممتدة

بسلام ومودة

وطنى وطن محبة

يا أهلا بالصحبة،

ويختتمها بقوله:

سوف ترون العجبا

من عد الأسلاف

وتلاقون الحبا

فى بلدى المضياف[2]

ملمح ثان فى أشعار أحمد زرزور للطفل، وهو ما يلى غرسه مفاهيم المواطنة والانتماء للوطن، وأعنى به قضايا العروبة والأمة، كأنما يريد التنشئة السياسية للطفل على أسس من وعى المواطنة الصحيحة فى أبعادها والأدوار التى تنتظرها، ومنه قوله:

«يا صاحبى

يا صاحبى النبيل

إذا أردت أن ترى ابتسامة الورود

ضعها أمام (خوذة) الشهيد

---

(١) ديوان «سلام عليكم» ، أحمد زرزور ، ص ص ١٤ ، ١٥ ، ط١ دار جهاد للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٨ .

(٢) ديوان «أغنية الأسير» ، أحمد زرزور ، ص ١١ ، ١٥ ، ط١ دار جهاد للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٨ .

أو حطها على شباك

جارك

المريض

أو أعطها لجدك الحبيب

فى

صباح

العيد... »[1]

فتكريم شهداء الوطن، شهداء الأمة يتصدر سلوكيات زيارة المرضى، أو ترجمة عواطف المحبة للأجداد. لذلك يشرك الشاعر، الطفل العربى، مأساة أطفال الخيام فى فلسطين فى قوله:

«على جدار خيمتى

بطاقة ملونة

لربوة مخضرة، وقلعة، ومئذنة

وطفلة حزينة

بين الخيام جائعة

ترنو إلى الأفق البعيد _ فى المساء _ دامعة»[2]

وشاعرنا يثق فى مكنون الأمة وقدرتها على تجاوز نكبة فلسطين إذا ما توفرت العزيمة والصبر والإرادة، فيذكر:

«فلنفخر بعقول سهرت

وقلوب فى الشدة صبرت

حتى صعدت نحو القمة

---

(١) ديوان وردة القمر ، أحمد زرزور ، ص ١١ ، ط ١ دار الملتقى للنشر ، قبرص ، ١٩٩٥ م.

(٢) ديوان «أغنية الأسير» ، أحمد زرزور ، ص ٧ ، ط١ دار جهاد للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٨ .

بعزيمتها

أعظم أمة ... »[1]

لقد استشعر أحمد زرزور خطر الاحتلال ومأساويته، فجسد خطورته غير مرة فى اشعاره للطفل ومنه قوله من مقطوعة حكاية الولد الفلسطينى:

«يا نجمة المساء

يا حلوة الضياء

قصدتى حكاية

حزينة البداية

أنا فقدت دارى

وتهت فى القفار

فالغاصب اللئيم

الغادر الأثيم

سطا على بلادى ... »[2]

** أن الشاعر يمزج حب "الأب" بمحبة "الأوطان" فى عناق غريب، ومن ثم يتمثل الطفل حاضره ومستقبله والدور الذى ينتظره، يقول شاعر تحت عنوان "لماذا أحب أبى": فى شعر ثنائى القوافى أو مزدوج القافية، والحديث فى المقطوعة يجئ على لسان طفل، وحديث الطفل هو جذر اللغة المتنامى، وأهم العلماء الذين درسوا أهمية اللغة وتطورها عند الطفل أمثال: "جان بياجيه" و "هنرى والون" و "بارهو سكنر" و"جيروم برونر" و"ليف فيجوتسكى" و "اليكسليونتيف" وغيرهم، قد أوضحوا كيفية الاتصال اللغوى بين أشكال الحديث عند الطفل ووظائفه من جانب وبين الحقيقة الخارجية على الجانب الآخر[3]:

(١) ديوان «أغنية الأسير» ، أحمد زرزور ، ص ١٠ ، ط١ دار جهاد للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٨ .

(٢) ديوان وردة القمر ، أحمد زرزور ، ص ٣ ، ط ١ دار الملتقى للنشر ، قبرص ، ١٩٩٥ م.

(٣) Child Development & Education, Lada Aidarova, p: 52 .

أحب فـــى أبـــى طمـــوحـــه للغـــد
وجـــهـــده الدءوب وســعـيـه لـلـمـجـد
وحـــبـــه الـعـظـيـم لأرضـنـا الـطـهـــور
وحـلـمـه الـكـبـيـر يفـجـرها المنصـور
أحـب فـــى أبـــى إيمـانـه الـعـجـيـب
بـعـودة الـشـــريـد لـبـيـتـه السليب
وعـــودة الطـيـــور لـلـعـش فـى الـربـيـع
تـــزف لـلـدروب بشـارة الرجـوع[1]

أما شعر "الوصف" فى دواوين أحمد زرزور للأطفال، فيجئ انعكاساً راقياً يحتذى من خلاله الشاعر المعايير الفنية السديدة لكتابة النص الأدبى الموجه للطفل، لغة وخيالاً وإيقاعاً وأفكاراً، ومنه قوله:

كوكبنا كرة زرقاء
موج وزوارق وسماء
كوكبنا عش مفتوح
لطيور تأتى وتروح
تلهو تحت الشمس وتمرح
أو تقف على النخل وتصدح[2]

ومنه أيضاً قوله المستجاد يصف شم النسيم على لسان الحيوان فيذكر:

نحن صغار الحيوانات
نخرج فى أحلى النزهات
نلعب مع نمر أو نضحك

(١) ديوان قوس فرح ، أحمد زرزور ، ص١١ ، ط دار جهاد للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٨ م.
(٢) «بلياتشو» ديوان شعر أحمد زرزور ، ص ٦ هيئة قصور الثقافة ، ع ١٨ القاهرة د . ت.

فاليوم محال أن نهلك!

ما أجمله عيد ربيع

وحش الغابة صار وديع

...

شم نسيم شم نسيم

لكن هذا النمر لئيم

فلنتأهب منتبهين

منذ متى والوحش أمين؟[1]

ويلتقط الشعر، أثر نهر النيل فى حياة المصريين صغاراً وكباراً، فيصف خيره وفيوضات الماء عبر جداوله التى تملأ الوادى والدلتا فيذكر:

نون. هاء. راء: نهر

يجرى فى الوادى بالخير

أنا والنيل سنبنى وطنى

فليتدفق طول الزمن

إلى قوله:

نهـــر يمنحنـــا الأفـــراح أنـا والصائـــد والفـــلاح

مـــاء يهتـف للـصحـــراء جنتـك لتصيرى خـضراء [2]

ومن الوصف المستجاد قول الشاعر يخاطب جمهور الطفولة، إذ يوحى إلى تعريف طيف الخيوط الملونة الإشعاعية المعروفة بقوس قزح فيقول:

«ما أروعه قوس قزح

سنسميه قوس فرح

---

(١) المرجع السابق ص : ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ك ١٦ .

يهدينا أزهى الألهوان

فى طيف حلو ... فتان[1]

وقوله يصف أنهمار الغيث فى فرح وبركة:

"يا أخوتى الشطار

هيا مع الأطيار

فى الصبح كل نهار

نشدو مع العصفور

للغيث وهو يسير

يروى الأراضى البور[2]

ومن أمتع منظوماته الوصفية للطفل قوله:

شجيره الصفصاف

نمت على الضفاف

تحنو على الطريق

بظلها الصديق

شجيرة الصفصاف

تقول: لا أخاف

من عطش أو جوع

فالنهر تحت ساقى

يجرى بلا انقطاع![3]

ومن بديع الوصف مما يثرى خيال الطفل، ويزيد من محصوله اللغوى بالتدريج قوله من مقطوعة: سر الغصن النضير:

---

(١) قوس فرح ، أحمد زرزور ، مرجع سابق ، ص ٢ .

(٢) أغنية الأسير ، أحمد زرزور ، مرجع سابق ، ص ٥ .

(٣) ما قالته الغيمة الأخيرة ، أحمد زرزور ، ص ص ٧ ، ١٣ ط ١ هيئة الكتاب ١٩٩٤ .

"وقفت عند أنضر الأغصان

سألته عن سره،

فقال:

«يا صديق

الشجر النضير

يستمد خصبه من

جذره

العميق!»[1]

والوصف المستجاد لدى الشاعر نجده أيضاً فى مثل ذلك الاستهلاك من قصيدة القمر والأحلام:

«الساعة التى على الجدار

تشير فى المساء

نحو العاشرة

والقمر الدوار

مبتسماً يبدو الظلام

ويؤنس القوافل المسافرة»[2]

ألفينا الصورة الفنية فى السطر الأخيرة، صورة قريبة تضيف لخبرات الطفل الوعى بضوء القمر وأهميته فى الصحراء، بعيداً عن المدن وأضواء الكهرباء الصناعية.

(١) المرجع السابق ،ص ص ص١٧ ، ١٨ .

(٢) وردة القمر ، ديوان أحمد زرزور ، ص ١٦ .

فى اللغة والخيال والإيقاع:

تمثل العناصر الثلاثة (اللغة والخيال والإيقاع) المرتكزات الرئيسة التى يصدر عنها شعر أحمد زرزور للأطفال، وفى الواقع أن أغلب أشعاره تتوجه إلى مرحلتى الطفولة الوسطى والمتأخرة فيما عدا بعض النصوص القليلة من مثل: المسحراتى ... طم ططم.. ططم)، يقول فى الأخيرة:

طم.. ططم.. ططم
يا نائما، للسحور: قم
طم.. ططم.. طم.. ططم
يا مؤمنا، للصلاة: دم
طم.. ططم..طم..ططم
يا شهرنا، بالعطاء: عم!

***

طم .. ططم.. طم.. ططم
رمضاننا، وافر الكرم
طم.. ططم .. طم .. ططم
يهدى لنا أطيب النعم
طم .. ططم .. طم .. ططم
فلتشكر الله، واغتنم

***

طم .. ططم .. طم .. ططم
تسحر الآن، يا كرم
طم .. ططم .. طم .. ططم
وأيقظ الجار إن ينم
طم .. ططم .. طم .. ططم

وإن أتى الفجر، فلتصم[1]

فالمنظومة السابقة تتوجه فى شكلها ومضمونها لأطفال المرحلة المبكرة من مراحل الطفولة، وتفيدهم كذلك فى اكتساب مفردات جديدة على قاموسهم اللغوى، وإذا كان الشاعر أحمد زرزور قد وفق تماماً فى تنويعات شعره للطفل، بحيث تضمن أغرضاً شتى تربوية وتعليمية ووصفية ووطنية ودينية واجتماعية، بل شعر مناسبات للطفل كالأعياد وغيرها، فأنه بحاجة إلى تجويد فنى مماثل لعنصرى (الخيال والإيقاع) لا جرم أن لغته سليمة فصحية، وخياله أو صورة سديدة وقريبة التناول، مثلما يمتلك البنى الإيقاعية فى الشكلية (الحر والعمودى) لكننا إزاء بلوغ جمال الكمال الغنى فى كل أشعاره، ذلك أن بعض تجاربه ـ وهى قليلة بالقياس إلى مجمل نتاجه للطفل- قد لامسها بعض الهنات، ولو تخلص منها لأصبح أحد أهم الشعر العربى المعاصر فى أصوات أدب أطفالنا.

من أمثلة ما الفيناه تلكم الصورة الخيالية المركبة الممتدة قوله:

«فى موكب عجيب

لا الليل فيه يسبق

اطلاته النهار

ولا النهار يمرق

وينزع الأستار»[2]

لعلها رتبة الإيقاع، عالية المستوى اللغوى، غير قريبة التأويل فى رسم الصورة، وذات التأويل الذى قصدناه نجده فى مثل التباين فى رسم الصورة على لسان القمر من قصيدة (أين يروح القمر؟):

وليس لأننى أرحل

إلى مدن بعيدات، ولست أعود

---

(١) سلام عليكم ، ديوان أحمد زرزور ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٢) سلام عليكم ، مرجع سابق ، ص ٨ .

فإنى صاحب الأطفال والأزهار والبيدر

وعدتهمو، وسوف أعود

ولكنى؛

لأن الأرض لؤلؤة معلقة بسقف الكون

دائرة تلف، تلف

أغيب هنا،

لأسخو بالضياء هناك[1]

وكنا نود لو أوضح الشعر ظاهر تعاقب الليل والنهار (الشمس والقمر) بدلاً من الأرض (لؤلؤة معلقة بسقف الكون) مما يحير جمهور الأطفال

مثال آخر للصعوبة اللغوية(*) قوله فى صور غير مستجادة:

الشمس تستعر ص ٩ قوس قزح)، (الريح تحسدنى ص ٩) ،)لولاه ما حلقت فى أفق الزاهر ص١٠ ديوان قوس قزح)، (نحب الحمائم والاقحوان ص ١٥ ديوان ما قاله القيمة الأخيرة). (تعلو على سرير الأفق ص٣ ما قالته الغيمة الأخيرة، (نقيرش حصاة الرمل _ يلتحف ثلوج الكيل ص٤ أغنية الأسير)، (فالينا يتدلى الشر _ لا يأتى من أعلى خير ص ٢٠ بلياتشو) وغيرها من نادر الشواهد اللغوية الصعبة، أما الخيال وعلاقته برسم الصورة فيكاد يخبو فى مجمل نتاج الشاعر، كان قلقا فى مرات قليلة سواء فى تباينه أو طوله ومنه:

«غدا افيض

حين تهل الغيمة الرفراف

فترجع الطيور للضفاف

وينعس الأطفال فى أمان

---

(١) ما قالته الغيمة الأخيرة ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(*) أهملنا عن قصد تناول محاولته التجريبية الكتابة باللهجة الدارجة (العامية) فى ديوانه للطفل (طنانة زنانة) مما يتعارض وأجد أهم الأهداف الوظيفية فى أدب الطفل.

بقلة موسم

الجفاف »[1]

فهل جفاف النهر أم فيضانه من عوامل تعاس الطفل دون سواه من بين سكان حضارة النهر..

ومن الأخطاء التأليفية _ ربما غير المقصود _ تكرار نشر الشاعر لبعض قصائده للطفل فى أكثر من ديوان من مثل:

"قصيدة أغنية إلى زهرة عباد الشمس" ، وقصيدة "أين يروح القمر" وقصيدة "أغنية الولد الفلسطينى" والتى تنقلت بين دواوين: قوس قزح، سلام عليكم، وردة القمر، ما قالت الغيمة الأخيرة؛ وذلك المزلق قد لا نعيب الشاعر فى تبويبه لتتاجه، لأنه غزير الإنتاج، جيده، ولديه ما يكفى لسد حاجات الطفل دونما تكرار، والمأمول ملاحظة ذلك فى قادم الطبقات.

إن ما ذكرناه من هنات قصار، لا يقلل من إبداع متنوع لدى الشاعر فهو جيد المستوى، ينمو مع كل جديد للطفل، ولو أكمل شاعرنا منظومته الشعرية للطفل بكتابة النشيد، والمسرحية الشعرية القصيرة، لاكتملت لدينا مقومات فارس شعر الطفولة المعاصر، فى لغته القريبة من عالم الطفل، وفى خياله بسيط التناول رشيق الصورة، وفى إيقاعه المتماسك والملائم فى الشكلين العمودى والحر، وهو ما يقدمه فى اقتدار فنى ملحوظ.

(١) وردة القمر ، مرجع سابق ، ص ١٣ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الدواوين الشعرية:

١) أحمد زرزور: وردة القمر، ط١ دار الملتقى، قبرص، ١٩٩٥م.

٢) : ما قالته الغيمة الأخيرة، ط١ هيئة الكتاب القاهرة ١٩٩٢ .

٣) : أغنية الأسير، ط١ دار الجهاد، القاهرة ١٩٩٨م.

٤) : «بلياتشو" ، ط١ هيئة قصور الثقافة، القاهرةن العدد ١٨ . د.ت.

٥) : سلام عليكم، ط١ دار الجهاد، القاهرة ١٩٩٨م.

٦ : كى يسلم الجميع.. ط المركز القومى لثقافة الطفل بالاشتراك مع (اليونسيف)، القاهرة ١٩٩٥م.

٧) : قوس قزح، ط١ دار الجهاد، القاهرة، ١٩٩٨م.

ثانياً: الكتب العربية:

٨) أحمد زلط (دكتور) : الطفل مبدعا، ط١ دار هبة النيل، القاهرة ٢٠٠٣م.

٩) : ذاكرة السَّحر، ط١ دار هبة النيل، القاهرة ٢٠٠٣م.

١٠ : معجم الطفولة، ط١ دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٣م .

١١ : الخطاب الأدبى والطفولة، ط١ وزارة الثقافة القاهرة ١٩٩٧م.

١٢) مجدى وهبة (دكتور): معجم مصطلحات الأدب، ط١ بيروت، د.ت.

١٣) نورى جعفر (دكتور) : الأصالة فى مجال العلم والفن، ط١ بغداد ١٩٨٧م.

١٤ : سيكولوجية الإلهام، بغداد ١٩٨١م.

ثالثاً: الكتب الأجنبية

15) Awakening To Life, A.Meshcheryakov, Moscow, 1979.

16) Child Development and Education, Lada, Aidarova, Moscow, 1982.

رابعاً: الدوريات:

١٧) الفت حقى (دكتور): ثقافة الطفل، مقالة بمجلة عالم الفكر الكويتية، مج ١٠، العدد ٣٤.

١٨) يحيى الرخاوى (دكتور): الأدب والفنون، مقالة بمجلة فصول القاهرية، مج، ع٢.